العرب
الأحد 2021/02/07
السنة 43 العدد 11964

أيها المثقفون والمفكرون هذه ساعتكم: علمونا أن نقول «لا نعرف»

«لا أعرف» مصطلح تابو يخفي خللا فادحا

الآباء والأمهات لم يكونوا طلابا خارقي المعارف

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

أول ملاحظة شخّصها صديق زار عاصمة عربية عريقة، أن أحدا في الشارع لا يقول لك "لا أعرف" إذا سألته عن مكان أو معلومة ما. ثمة ضغط نفسي ربما ولّده الأفراد على أنفسهم يجعلهم يتحرّجون من الرد بعدم المعرفة. قد يكون التأثير أكبر لأنه ظاهرة اجتماعية يضعها الناس على أنفسهم.

هذا شيء تكاد لا تلمسه وأنت تعيش في المجتمعات الغربية. أنت تعرف بقدر ما تعرف، لا أكثر ولا أقل. أو هكذا كنا نعتقد إلى حين دخول الجائحة ومواجهة واقع العزلة.

البيئة المعرفية

أين كان "المقتل" إذا جاز التعبير؟ كان في تغيير طبيعة التعليم، أي بعد أن أصبح على الأسر القيام بدور المدرسة. لم يعد المطلوب الردّ على تساؤل مستطرق في الشارع أو حانة أو في حوار. صار عليك أن تعرف لتعطي المعلومة لطفل أو صبية يتلقفانها وتصبح جزءا من منهج تدريس يتلقاه التلاميذ في البيت لأن الوباء ينتظرنا في الشارع والحي والمدرسة.

في العالم العربي يسود الحفظ وفكرة النجاح للحصول على درجات عالية تؤهل لتخطي المراحل الدراسية الكثيرة

الآباء والأمهات أخذوا على حين غرّة وكان عليهم أن يتحولوا إلى معلمين في أيام. لا أعرف إن كانت هناك كتب من نوعية "تعلّم أن تصبح معلما في خمسة أيام" أو "ممارسة مهنة التعليم للحمقى أو الجهلة".

المسؤولية تفرض نفسها بقوة، والآباء والأمهات ليست لديهم خيارات. وأمام من؟ أمام أطفال أو صبيان وصبيات تعلموا أن يستخدموا الكمبيوتر والأيباد والهاتف الذكي، من قبل أن يستكملوا ملكة النطق.

البيئة المعرفية للتعليم في العالمين العربي والغربي على السواء تُركت للمتخصصين. في المدرسة، يقوم المعلم والمدرس بواجبهما، والأهل من غير الاختصاصيين، وخصوصا في عالمنا العربي، يتركون الأمر لمذاكرة التلميذ أو يستعينون بالتدريس الخصوصي الجمعي والفردي.

في العالم العربي يسود الحفظ وفكرة النجاح للحصول على درجات عالية تؤهل لتخطي المراحل الدراسية الكثيرة وصولا إلى الجامعة والمعدلات اللازمة للمنافسة. وفي العالم الغربي حيث الفهم أساس الممارسة التعليمية وترك التلميذ يؤسس لنفسه استعدادا لعالم متقلب، لا يحرص منهج التعليم بالضرورة على دفع الطالب نحو التخصص الجامعي دائما.

تحصيل المعارف

"لا أعرف" إذًا مصطلح تابو الآن. هذا يضع المزيد من الأعباء النفسية على الأهل. تستطيع أن تنجو بتدريس الأساسيات من اللغة والحساب والدروس العلمية البسيطة. لكن ما إن تدخل إلى مرحلة ما بعد الصف السادس، أي المتوسطة أو الثانوية، حتى تبدأ العقبات بالظهور.

هذا جبر وهندسة مسطحة وفراغية. هذه فيزياء وكيمياء. هذه لغة إنجليزية لا تعرف منها إلا المفردات ولا تدرك هيكلة النحو والصرف فيها. في الحقيقة هذه لغة عربية كنت تعتقد أنك تفهم في صياغتها وإعرابها. فجأة أنت التلميذ أو الطالب الذي عليه أن يعرف لكي يعرّف ابنه وابنته. وعليك أن تفعل كل هذا بصبر وأناة وسعة صدر.

الآن تعرف كم يعاني معلمونا ومدرسونا يوميا أمام الجمهرة الغفيرة من تلاميذ وطلاب بمستويات ذهنية متباينة. طوبى لهم، يا لهم من صبورين!

هذا يأخذنا إلى الفكرة المعرفية نفسها التي نحتاج إلى إعادة النظر فيها. هل علينا أن ننكر أننا "لا نعرف". حسنا، إننا اليوم نعيش اختبارا للمعرفة أو القدرة على إعادة التقاط المعرفة في هذا الظرف الاستثنائي. هل علينا أن نضع محرك غوغل أمامنا ونسأله ثم نرد على طفل أو صبي يعرف أنك تتلصص على غوغل وربما لا تربط الأمور بشكلها الصحيح؟

لا أعرف إن كان ثمة جواب حاسم في هذا الأمر. الآباء والأمهات لم يكونوا طلابا خارقي المعارف بالأصل للتعويل عليهم في استنباط المقبول والمطلوب. لعل هذا دور المفكرين والمربين والمعلمين والأكاديميين المحترفين. نحتاج إلى خارطة طريق، ترسم على وجه السرعة وليس من الضرورة أن تكون متكاملة المعالم أو أن تكون النهائية.

الاستنجاد بالمثقفين

في العالم الغربي تجد الإرشادات في كل مكان. من وزير التعليم نزولا إلى الاختصاصيين الذين يكتبون أو يتحدثون على شاشات التلفزيون أو يستجوبون في البرامج الحوارية على الراديو تستمع منهم وأنت تقود سيارتك أو تطبخ وجبتك. لكن في عالمنا العربي نلاحظ أن تلمّس معالم الطريق يتمّ بصعوبة.

قرأت لمدرسين تربويين في كليات متخصصة، ولديهم أفكار ناجزة وموضوعية. لكن السائد في ما تسمعه وتقرأه يبدو ضحلا وأشبه بتوجيهات لتجمعات "الكتّاب" الدينية القديمة أكثر منها فعلا تربويا رصينا.

أعتقد أن مثل هذا الفعل التربوي الذي يوجه للآباء والأمهات يحتاج أن يكون أولوية من قبل مطالبتهم بأن يصبحوا معلّمين ومدرسين بالمصادفة. مرة أخرى نستدعي مثقفينا ومفكرينا ونقول لهم هذه ساعتكم: علمونا أن نقول "لا نعرف" لعل الموقف يستحثنا ونصبح "نعرف".

القلعة الأخيرة لحماية مساحة المناعة

رمضان بن رمضان

يجمع المؤرخون على أن زمن الجوائح والأوبئة هو زمن الإرهاصات بالتحولات الكبرى التي تصيب المجتمعات والدول والإمبراطوريات في شتى مجالات الحياة، فما قبل كورونا ليس كما بعده. قد يحدث الوباء كسرا مباغتا في التاريخ، إلا أن العالم القديم لا يمكن أن يموت مرة واحدة كما أن ما بعد كورونا لا يمكن أن يولد دفعة واحدة، فجيلنا الحالي سيعيش هذه اللحظة الانتقالية بين الماقبل والمابعد. فهل سنكون جيل العبور والاحتراق ونعيش التمزقات والآلام؟ وهل سيكون الخوف من الآتي الرحم الحاضن للمخاض المولّد للرؤى الجديدة في مختلف مناحي الحياة؟

لقد لخص شاتوبريان (1768 – 1848)، وهو الذي عاش ما قبل الثورة الفرنسية وما بعدها، هذه الحالة، والترجمة للكاتب السوري هاشم صالح "لقد وجدت نفسي على مفترق قرنين كما يجد المرء نفسه على مفترق نهرين، وقد غطست في المياه المضطربة مبتعدا بحسرة عن الشاطئ القديم، حيث ولدت سابحا نحو الشاطئ الآخر المجهول الذي تصل إليه الأجيال المقبلة والذي لن أراه بأمّ عيني".

فرض فايروس كورونا على العالم بأسره أن تغلق الدول حدودها البرية والبحرية والجوية وأن تجبر كل دولة متساكنيها لزوم بيوتهم حتى غدا التباعد الجغرافي والتباعد الاجتماعي سمتين بارزتين لسكان الأرض، حدث ذلك في ظرف زماني وجيز، وضع كان من المستحيل التفكير فيه في زمن العولمة.

لقد أصبح المسكن بيت الكينونة، فعودة الأفراد إلى بيوتهم قسرا تجعلهم يبحثون عن براديغمات جديدة يعيدون من خلالها صياغة ذواتهم والعلاقات في ما بينهم، وقد تكون هذه العودة استرجاعا لوضع عاشته الإنسانية في تاريخها السحيق. يظل البقاء بالبيت الملاذ الأول والأخير من خطر لامرئي داهم يصبح البيت، في ظل هذه العودة إلى الحميمية الأولى، القلعة الأخيرة لحماية مساحة المناعة التي تبقي جسما سليما في مأمن على نفسه من العدوى.

الفايروس تهديد للحياة بوصفها مختزلة هذه المرة في مساحة المناعة التي يحتاج إليها جسم ما كي لا ينقرض. لقد صار المنزل فجأة مساحة العالم الوحيدة التي يلوذ بها الأحياء من أجساد بعضهم بعضا بعد أن حولهم الفايروس إلى آلات عدوى تعمل ببراءة فظيعة. لقد حوّل الخطر الوبائي العالمي غير المرئي كل آخر مهما كان نبله وقرابته مجرد حيوان أو كائن ناقل لوباء أخرس. فالسؤال الذي طرحه الرومنطيقيون منذ هولدرلين في مطلع القرن التاسع عشر، بعد أن صار الشعر هو الشكل الوحيد للإقامة على الأرض: كيف نسكن العالم؟ قد صار فجأة سؤالا هزيلا وسيء الطرح، صار علينا أن نسأل على الأرجح "كيف نسكن بيوتنا؟" بوصفها "العالم" الوحيد المتبقي لنا كي لا ننقرض.

كورونا أعاد الأسئلة اللامفكر فيها (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

في هذا البيت الذي يقدم نفسه بوصفه مساحة العالم الأخيرة يشعر المرء بأنه لم يعد يمكن تحمل أيّ نوع من الضيافة غير اللائقة أي غير المنسجمة مع الحمية ضد العدوى. إن متوالية من القيم قد انهارت فجأة، قال جبران خليل جبران (ت. سنة 1931) "لولا الضيوف لكانت البيوت قبورا". ولكنّ الخوف من الوباء قد أعاد مشاعر الناس إلى بدائيتها. فالناس أضحت أفعالا لازمة لا تتعدى إلى الآخر، حيث إن فرض التباعد الاجتماعي جعل أيّ ضيف مهما كانت طبيعته لا يحتمل.

لقد غدا البقاء بالبيت تمرينا ما بعد أخلاقي وما بعد سياسي على سياسة الحياة من أجل مجرد البقاء على قيد الحياة وليس استقالة من الإنسانية التي تجمعنا بالآخرين. (جملة هذه الأفكار مستقاة من مقال فتحي المسكيني، "عودة الإنسانية إلى البيت").

من المفارقات التي خلفها وباء كورونا، إعادة بناء الثنائيات ودفعنا إلى مراجعتها ثم إلى صياغتها صياغة جديدة. فبقدر ما تغوص الذات في شرنقتها تبحث عن خلاصها الفردي أو خلاص عصبتها، فإن للجائحة وجهها الآخر، وهو تخليص المبادرة الفردية/ الجماعية من عقالها في تحد لعوائق البيروقراطية المقيتة. فراحت تبدع وتصنع وتكتشف عن مجالات شتى متصلة بالجائحة وما فرضته علينا من استعجال لسد نواقص منظومتنا الصحية الهشة، دون أن ننسى المد التضامني غير المسبوق مع الفئات الاجتماعية من ضعاف الحال.

لقد هبّ المجتمع بكل قطاعاته العلمية والمدنية والشعبية مدفوعا برغبة في العطاء لا حدود لها أبانت عن جواهر دفينة مخبأة كشفتها الجائحة بعد أن طمرتها السياسات الفاشلة. لكن في المقابل تقرّح جسدنا الاجتماعي رذائل يعانيها من ذلك الجشع والاحتكار والأنانية والتخاذل في مد يد المساعدة والمضاربة والمتاجرة بآلام الناس حيث ينزل مستوى الإنسانية والإحساس بالانتماء إلى ما دون الصفر. إن العودة إلى البيت فرصة يتيحها لنا كوفيد – 19 لمراجعة بعض المسلمات ولاسيما مسألة الفردي والجماعي، وقضية الذات والآخر متسلحين بما تهبه لنا العزلة من صفاء ذهني، بعيدا عن التوترات التي من شأنها أن تجعل رؤيتنا للأشياء ضبابية تغلب عليها الأيديولوجيا والانفعال وتحركها الغريزة، إننا نعود إلى البيت لنؤسس لكينونتنا أبعادا إنسانية ونعطي لوجودنا معنى جديدا.

ما أحدثته جائحة كورونا يجعلنا متفائلين بانبثاق عالم جديد بديل عن النظام العالمي الحالي القائم على العولمة

إضافة إلى تداعياتها الاقتصادية والاجتماعية، لم تترك جائحة كورونا تديننا وممارساتنا الشعائرية بمنأى عن تأثيراتها فقد أصاب كل ذلك ما أصاب غيره من تغيرات هزت الضمير الديني ورجّته، فليس من السهل أن تغلق المساجد والجوامع ويحرم المؤمنون من صلاة الجماعة ومن صلاة الجمعة وكذلك تعليق العمرة وربما فريضة الحج، وكأننا عدنا إلى الدين في شكله الأول، لحظة انبثاقه، حيث أصبحت الصلاة عبادة فردية/ منزلية بحكم التباعد الجسدي الذي اقتضاه الخوف من العدوى واقتصرت صلاة الجمعة على الإطار المسجدي ولكأنها العودة إلى ما قبل تشكل المذاهب الفقهية وإن استأنست وزارة الشؤون الدينية التونسية بالمذهب الحنفي الذي يجيز صلاة الجمعة بثلاثة أنفار ومعهم الإمام، وذلك على عكس ما استقر في المذهب المالكي – وهو المذهب الرسمي للدولة – الذي يشترط في إقامة صلاة الجمعة وجود اثني عشر رجلا كل ذلك من أجل استمرار هذه الفريضة.

أما صلاة التراويح وللأسباب نفسها فستعود إلى ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث كانت صلاة فردية بعد وفاته، قبل أن يجعل منها الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلاة جماعية.

أما بالنسبة إلى طقوس الموت ولما للموت من وقع بالغ الأثر على أهل المتوفى ولما يمثله الموت في حد ذاته من جلال وهيبة جعلا الشعوب من مختلف الثقافات والديانات تقيم له الطقوس التي تليق بمقامه، فقد اختزل كل ذلك في عملية دفن يحضرها عدد قليل أغلبهم من المؤسسة الرسمية، فالتخلي عن تغسيل الميت وتكفينه وتوديعه من قبل أهله والصلاة عليه – صلاة الجنازة – لأمر مؤلم لا يمكن تقبله والتعامل معه فهو غير مفكر فيه، إلا أنه في ديننا ما يجعلنا نرضى بالحد الأدنى من مراسم الجنازة وعملية الدفن بنفوس راضية مستسلمة لقضاء الله فممّا استقر في الضمير الإسلامي مقولة "إكرام الميت دفنه" التي لم يثبت رفع هذا اللفظ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإن ثبت عنه صلى الله عليه وسلم قوله "ثلاثة يا عليّ لا تؤخرهن: الصلاة إذا أتت والجنازة إذا حضرت والأيم إذا وجدت كفؤا" (رواه الإمام أحمد في مسنده).

ص10 و12 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية الشهرية اللندنية